آراء العلامة عبده الراجحيّ وجهوده في مجال تعليم اللّغة العربيّة

د. خليل عجينة

١- مقدّمة:

يُعدُّ العلاّمة أد. عبده الراجحيّ (١٩٣٧ – ٢٠١٠ م) علمًا من أعلام اللّغة العربيّة، وواحدًا من مفكّري العصر الحديث والباحثين المجتهدين في مجال الدرس اللّغويّ. "درّس في معظم الجامعات العربيّة، وفي جامعات لندن وأكسفورد وآرام، وفي جامعة إرلنغن في ألمانيا، وفي جامعات وسط آسيا في أوزبكستان، وتتارستان، وفي جامعة مالايا، والجامعة الإسلاميّة العالميّة في ماليزيا، وفي جامعة دايتوبونكا في اليابان، وتقلّد مناصب أكاديميّة عدّة، وكان عضوًا في مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وعضو اتّحاد الكتّاب، وعضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وعضو اللّجان العلميّة الدائمة للترقية إلى وظائف الأساتذة." (١)

وله مؤلفات قيّمة تُعدُّ من عيون ما أُلّف في علم اللّغة والنّحو في القرن العشرين. (٢)

وهو صاحب آراء علميّة وجهود لغويّة جديرة بالدراسة، والتّحليل ،والتطوير؛ لأنّها وليدة فكر لغويّ موضوعيّ منفتح تمثّل التراث تمثّلاً واعيًا، وفهم أصوله وفروعه فهمًا عميقًا، وأفاد من المناهج الغربيّة الحديثة إفادة رشيدة تهدف إلى تطوير الدرس اللّغوي العربيّ، وإلى تصحيح طرائق تعليم العربيّة في الجامعات والمدارس والمعاهد حتّى تُشارك التقدّم وتواكب العصر، وتسهم في تحقيق التنمية والنهضة. وهو صاحب المقولة الشهيرة التي كان يردّدها دائمًا :" لا تنمية، ولا تقدّم، ولا تحقيق للذات دون تعليم صحيح، ولا تعليم صحيح في بلادنا دون تعليم حقيقيّ للّغة العربيّة."

وهذا البحث دراسة لآراء العلاّمة الراجحيّ رحمه الله، وجهوده في خدمة اللّغة العربيّة في مجال التعلّيم فحسب، ولا يتطرّأ إلى جهوده وآرائه النحويّة واللّغوية والفكريّة. وقد كان لي شرفًا وفخرًا وعلمًا أن تتلمذتُ له، وسمعت منه، وقرأتُ عليه، وأن أشرفَ على جزء من أطروحة الدكتوراه التي كنتُ أُعدّها قبل وفاته، فأفدتُ من علمه وفكره وأدبه وتواضعه وأسلوبه وروحه كما أفاد من ذلك كثيرون ممن عرفوه، وتتلمذوا له، وأخذوا منه.

ويهدفُ هذا البحث إلى ما يلي:

١- جمع آراء الدكتور الراجحيّ وأقواله واقتراحاته وجهوده في خدمة اللّغة العربيّة في مجال التعليم جمعًا وافيًا يضمّ الأشباه والنظائر من كتبه وأبحاثه ومقالاته.

٢- تحليل الأبعاد التي تحملها هذه الآراء والأقوال، وتدعو إليها.

٣- إبقاء فكر هذا العالم اللّغوي الفذّ حيًّا، والإفادة من شرارته لتطوير تعليم اللّغة العربيّة في عالمنا العربيّ والإسلاميّ.

وأرجو أن أجمع في هذا الفائدةَ العلميّة والبرّ معًا.

وأعتمد في هذا البحث المنهج التكامليّ الذي يجمع الاستقراء والوصف، والاستنباط، إذ أستقري ما ورد للدكتور الراجحيّ في كتبه، ومقالاته، وأبحاثه من آراء وأفكار ودعوات ونظريّات في مجال تعليم اللّغة العربيّة، وأرصدها، وأُجملُها ثمّ أحلّل هذه الآراء والأفكار مبيّنًا الأبعاد التي تحملها، والإفادة منها.

وقد كان من أهمّ مصادر هذا البحث كتابُ " مقالات عبده الراجحيّ وبحوثه" الذي أعدّه الشيخ محمود عبد الصمد الجيار (٣) ، فضلاً عن كتب العلاّمة الراجحيّ، وتسجيلات صوتيّة له، سأذكرها في مواضعها إن شاء الله.

ويتألّف البحث من مُقدّمة ومبحثين وخاتمة، في المقدّمة تعريف بالعلاّمة الراجحيّ ومكانته العلميّة وإنجازاته، وتوضيح لأهداف البحث ومنهجه، وأمّا المبحثان فالأوّل عنوانه " واقع تعليم اللّغة

العربيّة وأسبابه" وفيه مطلبان: "واقع تعليم اللّغة العربيّة في رأي الراجحيّ"، و "غياب المنهج العلمي عن تعليم العربيّة"، وأمّا المبحث الثاني فعنوانه" جهود الراجحيّ في تعليم العربيّة " وفيه مطلبان : "جهوده النظريّة" و "جهوده التطبيقيّة"، وأمّا الخاتمة فتعرض نتائج البحث والتوصيات.

١- واقع تعليم اللّغة العربيّة وأسبابه

أ- واقع تعليم اللّغة العربيّة في رأي الراجحيّ

لم يكن الدكتور الراجحيّ رحمه الله ذا نظرة تشاؤميّة، ولم يكن يومًا من الذين يبثّون أفكارًا سلبيّة أو يروّجون لها، بل إنّ كلّ من عرفه وتتلمذ له، وأخذ منه أخذ بحظّ وافر من الطاقة الإيجابيّة الداعمة في مسيرة البحث والعمل والرقيّ الفكريّ، والسمت الأخلاقيّ النّبيل، لكنّه كان واقعيًّا في وصف الأمور، وموضوعيًّا في تقييمها، ينطلق من تفكير علميّ راسخ قواعدُهُ التخطيطُ والمنهج، والعمل.

وانطلاقًا من ذلك كان يصف واقع تعليم اللّغة العربيّة في العالم العربيّ بأنّه بعيد كلّ البعد من المنهج العلميّ في وقت أصبح تعليم اللّغات علمًا حقيقيًّا له أصوله وأدواته، يتطوّر في الغرب كلّ يوم، ويتضاعف سعيُ الباحثين في شأنه، وبالمقابل لم يُسهم الدرس العربيّ بجهد حقيقيّ يمكن أن يتّصف بصفة العلم. وإنّ كلّ المعايير التي يستخدمها الباحثون العرب في كتاباتهم لا تنبع في الحقيقة من بحوث عربيّة أصيلة. (الاكتساب اللّغويّ ومستقبل تعليم العربي، بحث ألقاه في ندوة اللّغة العربيّة والثقافة العلميّة، ١٩٩٦) (٤)

لذا كان الدكتور الراجحيّ يُبيّن واقع تعليم اللّغة العربيّة في كتاباته وأبحاثه ومحاضراته والمقابلات الإذاعيّة بصورة خطرة، ويصفه بالداء العضال الذي تأخّرت مرحلة علاجه حتّى بلغ حدّ الكارثة التي تنذر بسوء العاقبة. وظلّ يتحدّث عن ذلك، ويُبيّن خطورة ما يصفه، ويعاينه منذ سبعينيات القرن الماضي، حتّى العام ٢٠٠٩ أي قبل وفاته بنحو سنة في بحث ألقاه في الجلسة الخامسة من جلسات مؤتمر مجمع اللّغة العربيّة في دورته الخامسة والسبعين ظهر يوم الثلاثاء ٧ أبريل ٢٠٠٩، ونشر في مجلة المجمع.

وإذا تتبعنا ما قاله الدكتور الراجحيّ وكتبه وبيّنه في الأبحاث والمقابلات والكتب والمؤتمرات حول تعليم اللّغة العربيّة منذ العام ١٩٩٠ (٥) حتّى العام ٢٠٠٩ وجدنا أنّ فيه وصفاً موضوعيّاً، وإنذاراً دائماً، واستشرافاً خطيراً يدلُّ ذلك كلّه على الرؤية العلميّة الثاقبة لدى الراجحيّ رحمه الله في التشخيص وعرض الحلول.

ففي العام ١٩٩٠ يُبيّن في حديث أجرته معه مجلة الشرق السعوديّة (العدد، ٥٦٥، نوفمبر ١٩٩٠ م) أنّه "ما ينبغي لنا أن نستحي من الجهر بأنّ تعليم العربيّة يمثّل الآن مصنع الكارثة العام... وفي التعليم الجامعي على مستوى العالم العربي كلّه، وليست العربيّة هي السبب في ذلك على وجه اليقين ، وإنّما غياب المنهج العلميّ في تعليمها". (٦)

وفي العام نفسه أشار في بحث ألقاه في ندوة الجهود العلميّة للمرحوم الأستاذ الدكتور طه ندا عنوانه

" تعليم العربيّة في عصر ثورة الاتصالات " إلى أنّ " حالة تعليم العربيّة الآن في مصر وفي العالم العربيّ أقلّ ما يُقال فيها إنّها في مرحلة خطر". (٧)

وفي العام ١٩٩٦ أنذر بخطر حقيقيّ سيهدد اللّغة العربيّة والثقافة العربيّة معًا إذا استمرّ وضعها التعليميّ على ما هو عليه من غياب المنهج العلميّ الذي يوجهه ويقوّمه، وذلك في بحث بعنوان " الاكتساب اللّغويّ ومستقبل تعليم العربيّة" ألقاه في ندوة اللّغة العربيّة والثقافة العربيّة في ١٠ يناير ١٩٩٦، حيث قال " ولا نبالغ حين نقرّر أنّ مستقبل العربيّة في خطر حقيقيّ إذا استمرّ وضعها التعليميّ على ما هو عليه، ومن ثمّ فإنّ العلاقة بين العربيّة والثقافة العلميّة ستكون في موضع شكّ كبير". (٨)

وبعد مضي نحو ثماني سنوات يُسطّر في كتابه القيّم " علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة " ٢٠٠٤ الكلام نفسه الذي ردّده سنوات، وأعوامًا ليؤكّد على وعي عميق لأساس المشكلة، وفهم دقيق لسبل علاجها فيقول: " ...ونحن لا ننكر أنّ العالم العربيّ يدرك أهميّة العربيّة وخطورتها، ولكنّنا لا نستطيع أيضًا أن نتغافل عن الحقيقة الماثلة؛ وهي أنّ تعليم اللّغة العربيّة لأبنائها ليس في وضع ملائم، بل هو في حالة حرجة حقًّا، بحيث أصبح يمثّل " مشكلة" موضوعيّة لا مجال لإنكارها، ويجب بحثها ومواجهتها... وإنّ حالة تعليم العربيّة عندنا ترجع في أساسها إلى سبب جوهريّ لا تنفع معه معالجة الأسباب الفرعيّة، ألا إنّه غياب المنهج العلميّ." (٩)

وفي العام ٢٠٠٦ حين وجّه القارئ تلقاء اللّغة العربيّة في بحث عنوانه " التجربة الإنكليزيّة في المعجم التاريخيّ

وتحدّيات العنصر البشريّ" نشرته مجلة مجمع اللّغة العربيّة في العدد ١٠٩، ٢٠٠٦، بيّن الفشل الشديد الذي نتج عن الأنظمة التعليميّة في العالم العربيّ، وانعكاسه على استعمال العربيّة استعمالاً صحيحًا، وبدأت صورة اليأس من ذلك كلّه واضحة في قوله"... وحين نتوجّه تلقاء لغتنا نرى أنّه أفضت الأنظمة التعليميّة في العالم العربيّ على اختلاف مستوياها إلى ضعف شديد في الاتصال باللّغة العربيّة لأسباب معروفة، الأمر الذي يجعل من فكرة الاعتماد على القرّاء المتطوّعين أمرًا قريبًا من المحال"!! (١٠)

وفي العام ٢٠٠٧ تَقرعُ مقولته " وضع العربيّة في التعليم الآن وضع ينذر بسوء العاقبة ممّا لا يكفي معه الاستفادة، ونحن صامتون" (١١) نواقيسَ الخطر، وتدعو إلى الصحوة، والعمل.

وقبل وفاته بسنة واحدة وصف تعليم العربيّة بالمعضلة؛ لأنّ علاجه قد تأخّر حتّى استأصل الداء وبلغ مبلغه؛ لذا دعا إلى تغيير جوهريّ في التّعليم وليس إلى إصلاحه على ما يتنادى به الناس.

جاء في محاضرة " تعليم العربيّة من أين نبدأ " التي ألقاها في نيسان ٢٠٠٩ ونشرتها مجلة اللّغة مجمع اللّغة العربيّة في العدد ١١٧ ما يلي:

" ... معضلة تعليم العربيّة قد تأخر علاجها تأخرًا يكاد يصل بها مع كثرة ما قيل فيها إلى حدّ الاستعصاء... وأودّ أن أؤكّد أنّ ثمّة مبدأين يجب أن يكونا أصلين في كلّ ما نصدره الآن، وفيما يقبل من الزمان:

الأوّل: أنّه لا تنمية، ولا تقدّم، ولا تحقيق للذات دون تعليم صحيح.

الثاني: أنّه لا تعليم صحيح في بلادنا دون تعليم حقيقيّ للّغة العربيّة.

... وهذان المبدآن يستندان إلى نتائج ودراسات علميّة تؤكّد أنّ المعرفة لا تكون إلاّ إذا سكنت لغة أصحابها". (١٢)

ب- غياب المنهج العلميّ عن تعليم العربيّة

كان الدكتور الراجحيّ يوضّح في كلّ مرّة يعرض فيها صورة تخلّف تعليم العربيّة في بلادنا السبب الأساسيّ لهذا الداء، ويُجمله في غياب المنهج العلميّ الذي يمكن أن ينهض على دعّاماته تعليم العربيّة. وكان يرى دائمًا أنّ المنهج العلميّ الذي يفرض وجود تخطيط حقيقيّ، ويفرض تكاملاً في مصادر تعليم اللّغة، ويفرض تكاملاً بين البحث والمادّة، وبين المادّة والممارسة هو الحلّ الصحيح لنهضة تعليم اللّغة العربيّة (١٣) ، أمّا الحلول الاجتهاديّة التي لا تقوم على الأسس العلميّة فليس من شأنها إلاّ أن تزيد المشكلة تعقيدًا.

وقد كان الدكتور الراجحيّ دقيقًا في تشخيص غياب المنهج العلميّ في تعليم العربيّة في كتاباته وأبحاثه العلميّة (١٤) ويمكن أن نجملها فيما يلي:

- غياب التخطيط للتّعليم اللّغويّ تتولاه جهة ذات كيان سياسيّ وعلميّ، بل المسألة متروكة للاجتهادات الفرديّة، والتصوّرات الذاتيّة، وللمتوارث المتعارف عليه بالرغم من التغيّر المستمر في العالم المعاصر على مختلف الأصعدة.
- غياب البحوث العلميّة في تعليم العربيّة، وقد ميّز الدكتور الراجحيّ البحوث النمطيّة التي تخرجها كليّات التربيّة وبعض أقسام اللّغة العربيّة، من البحوث العلميّة التي تسبق العمليّة التعليميّة، وكان يرى أنّها " لا تسير وفق تصوّر علميّ متكامل، بل تذهب بعيدًا في أودية متباعدة وفق مناهج متباينة أشدّ التباين، وإذا كنتَ من أهل الاختصاص فإنّك تعجز عن معرفة ما يجري في بلدك من بحوث لغويّة ، بل ما يحدث في العالم العربيّ". (١٥)

ومن تلك البحوث الغائبة يذكر البحوث العلميّة الحقيقيّة عن اكتساب الأطفال العرب لغتهم الأمّ، والبحوث العلميّة في المتون اللّغويّة الحاسوبيّة، والبحوث العلميّة في تصميم المقرّرات واختيار المواد التعليميّة، وغير ذلك.

- غياب المنهج العلميّ في تأهيل معلّمي اللّغة العربيّة القائم على التدريب، وبناء المهارات وقدرات. بالرغم من أنّ أحد أهداف أقسام اللّغة العربيّة في الكليّات تخريج معلّم للعربيّة فليس ثمّة مواءمة بين برامج هذه الأقسام وذلك الهدف؛ هذا وإنّ الإطار التلقينيّ الاستظهاريّ السائد في أقسام اللّغة العربيّة هو نفسه السائد في كليّات التربية التي من شأنها أن تقدّم برامج علميّة دقيقة لتأهيل معلّمي العربيّة. وإن كان ثمّة تأهيل وتدريب فيقع في مجال الاجتهادات الفرديّة والبرامج الصوريّة التي لا تقوم على أسس علميّة صحيحة.
- غياب الربط العلميّ بين التّعليم والثقافة، ويظهر في ظاهرة تعليم الموادّ العلميّة والطبيّة باللّغة الإنكليزيّة، الأمر الذي يضعف من واقعيّة تعلّم العربيّة، ويُثبّت في نفوس الطلاب عدم جدوى

بذل الجهد في تعلّم العربيّة، فضلاً عن ذلك فإنّ أبناء العربيّة الذين يدرسون العلوم بغير العربيّة يبقون مستهلكين لإنتاج غيرهم وفي حالة انتظار دائم لما يُقدّمه الآخرون.

- غياب التّقييم العلميّ القائم على خطط المتابعة والمراجعة، بل إنّه ليُتَصَوَّر أنّ ذلك من باب الترف.
- غياب تصوّر علميّ مدروس للتمويل من شأنه أن يكون القوّة الداعمة لكلّ ما تقدّم في المجالات السابقة.

٢- جهود الراجحيّ في تعليم العربيّة

لم يقف العلاّمة الراجحيّ (رحمه الله) على وصف واقع تعليم اللّغة العربيّة في البلاد العربيّة، وبيان الأسباب التي أدّت إلى تلك الصورة القاتمة التي كان يصفها، ويُسلّط الضوء عليها في أبحاثه وأقواله وأعماله من منظار علميّ محض، بل إنّ للعلامة الراجحيّ جهودًا كبيرة، وأعمالاً مُلهمة، ومواقف علميّة في خدمة تعليم اللّغة العربيّة تشهد له بها الجامعات العربيّة وغير العربيّة التي درّس فيها، وحاضر فيها، وأسّس فيها فكرًا نيّرًا في خدمة العربيّة، ولا سيّما في مجال التعليم، استنار منه كثير من الأساتذة والباحثين والمؤسسات، وسنعرض في ما يلي أبرز جهود هذا العلم الفذّ النظريّة والعمليّة في خدمة تعليم اللّغة العربيّة.

أ- الجهود النظريّة:

١- اقتراح إنشاء "المجلس المركزيّ للعربيّة":

هذا الاقتراح الذي كان الدكتور الراجحيّ يُنادي إلى إنشائه، ويدعو إلى تأسيسه في كلّ مؤتمر، وسطّره دعوته هذه في كتابه " علم اللّغة التطبيقي وتعليم العربيّة"، وكان يرى أنّ إنشاء هذا المجلس وفق شروط وضوابط مقترحة هو الحلّ الوحيد لمشكلة تعليم العربيّة قال " ...ومهما يكن من أمر فإنّ التخطيط لمستقبل تعليم العربيّة يتوقّف على حلّ واحد لا نرى الآن غيره" (١٦)، " ولن نمل تكرار الاقتراح الذي عرضناه في غير مكان من العالم الإسلاميّ والعربي وهو إنشاء مجلس أعلى لتعليم العربيّة" (١٧)؛ وذلك لأنّه كان يؤمن أنّ " الحلّ لا يستطيع أن ينهض به فرد، ولا جامعة، وإنّما لا بدّ له من مؤسسة على مستوى عالٍ تُزوَّد بإمكانيات ماليّة وبشريّة تمكنّها من النهوض بالإشراف على تعليم اللّغة العربيّة" (١٨)

ودعا إلى أن تكون هذه المؤسسة هيئة عليا مركزيّة اقترح لها اسم " المجلس المركزيّ للعربيّة" تشبه المجلس البريطاني British Council (١٩) ، أو الأكاديميّة الفرنسيّة Academic Francaise أو معهد جوتة Goete Institut (٢٠) ، وأن تتوافر فيها ما يلي (٢١) :

- أن تكون جهة غير حكوميّة مستقلّة استقلالاً كاملاً عن الأجهزة السياسيّة والإداريّة في العالم الغربيّ.
- أن يكون لها تمويل كافٍ يمكّنها من النهوض بأعمالها على درجة عالية من الكفاءة والاستمرار.
- أن تضمّ متخصّصين في كلّ ما يتّصل بميدان اللّغة في علم اللّغة، وعلم اللّغة النفسي، وعلم اللّغة الاجتماعيّ، والتربية شريطة ألاّ يكونوا من أساتذة الجامعات؛ لأنّهم لا يصلحون لهذا العمل، ولأنّهم لا يملكون الوقت الكافي للوفاء به، وألاّ يشتغل أيّ عمل في المجلس إلاّ من تتوافر فيه الشروط العلميّة اللازمة.
- أن يكون لها مركز رئيسي يختار لها مكان بعيد عن التاثيرات الحكوميّة، وتكون لها فروع داخل العالم الغربي وخارجه.

والذي لا شكّ فيه أنّ هذه الشروط التي وضعها الدكتور الراجحيّ لتدلّ على راجحة عقل واعٍ، وفكر تربويّ ثاقب، وبعد استراتيجيٍّ جليّ، حيث يرى أنّ نجاح هذه الهيئة يحقّق بالاستقلاليّة العلميّة التي لا تلوّثها القرارات السياسيّة، وبالكفاءة العلميّة المتنوّعة، وبالتمويل الماليّ الداعم.

وقد حدّد لهذه الهيئة المسؤوليّات الآتيّة (٢٢) :

- أن تكون الجهة الوحيدة المسؤولة عن تعليم العربيّة لغة أولى ولغة ثانية.
- أن تضع الخطط القريبة والبعيدة، وأن يكون لديها جهاز قويّ للمتابعة والمراجعة.
- أن تضع في صدارة مسؤولياتها إجراء البحوث الضروريّة في تعليم اللّغات، ولا سيّما ما يتصل بالمتون اللّغويّة، والتعبير اللّغويّ، وتنوّعه، واكتساب اللّغة، وغير ذلك.
- أن تضع البرامج الخاصّة بتأهيل معلّمي العربيّة، وتدريبهم في أثناء الخدمة، والإشراف عليهم كي يقفوا على كلّ مُستَحدَث وجديد.
- أن تشرف على تقييم المقررات واختيار

الموادّ التعلميّة، ووسائل الاختبار.

- أن تهتمّ بتقنيات التعاليم اللّغويّة الحديثة، وتطويرها، واستثمارها في تقوية إسهام العربيّة في أوجه النشاط العالميّ.
- أن تضع نظامًا قويًّا لعقد المؤتمرات، والندوات، وورش العمل، وحلقات البحث بصورة منتظمة منتجة.
- أن تشجّع على إنشاء رابطات لمعلّمي اللّغة العربيّة داخل العالم العربي وخارجه تتناسق جهودها في تطوير تعليم العربيّة.
- أن يكون لها جهاز قوي للاتصال، يكون وسيلة سهلة وسريعة متصلة بالباحثين والدارسين.
- أن تُنشئ مركزًا قويًّا للنشر العلميّ بأنواعه المختلفة المكتوبة والمسموعة والمرئيّة والإلكترونيّة.
- أن يكون لها مركز خاصّ لتعليم العربيّة لغير الناطقين بها يجب أن تكون غايته تعليم لغة الإسلام.

وقد كان للدكتور الراجحيّ نافذة أمل لتحقيق هذا المقترح في المستقبل الذي سيحمل متغيّرات جذريّة قد تقلب الصورة القاتمة التي تشير إلى صعوبة تحقيق نهضة في تعليم العربيّة، فتحيلها صورة تُظهر واقع تخطيط محقّقًا.

٢- المنهج الاتصاليّ والنشاط الاستظهاريّ

كان ممّا دعا إليه الدكتور الراجحيّ في السعي إلى تغيير تعليم العربيّة الدراسةُ العلميّةُ الصحيحة لعناصر المناهج، والمواد التّعليميّة، وإعداد المعلّم، وتقنيات التّعليم وغيرها في منهج متكامل يربط بينهما، وكان يؤكّد على أنّ " أفضل المناهج هي التي يستخلصها كلّ بما يناسب خصائصه الثقافيّة والتاريخيّة" (٢٣) . من هنا رأى أنّ المزج بين المنهج الاتصاليّ والنشاط الاستظهاريّ يُعدُّ منهجًا متكاملاً من شأنه أن يرفع مستوى الطلاب في التعليم الأساسيّ، فالأوّل " يعني استعمال لغة طبيعيّة واقعيّة وظيفيّة في قاعة الدرس الذي يُعلّمنا كيف نتعلّم لا أن يعلّمنا مدّرس من مكانه الأعلى فيقرّر وحده ما ينبغي أن نتعلّمه."(٢٤) والثاني " يؤدّي إلى الذاكرة الجيّدة، وهي تعني تكوين ارتباطات متعدّدة لكلّ حقيقيّة نعني بالاحتفاظ بها، أي كيف ننسجها في علاقات نسقيّة" (٢٥)، ودعا في ذلك إلى استثمار حفظ القرآن الكريم في هذه المرحلة، وهو بذلك يحاول أن يمزج بين الخصائص العربيّة المركوزة فينا منذ زمن بعيد، والتي آتت أُكلها في ما مضى، والتوجّهات الحديثة التي أسفرت عنها الدراسات والأبحاث والتجارب الغربية الحديثة في تعليم اللّغة. ولا شكّ أنّ ذلك يدلّ على شخصيته العلميّة، وفكره المنفتح، وأصالته المتجّذرة في قلب التراث النيّر. وقد حذّر من رفض المناهج اللّغويّة الحديثة، ورأى أنّ ذلك يضرّ بالعربيّة نفسها، وأنّه من الضروري أن نفيد مما يطوّره الناس، وأن نشارك في هذا التطوير (٢٦) .

٣- علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة

يُعدُّ كتاب " علم اللّغة التطبيقي وتعليم العربيّة" الذي صدر أوّل مرّة في العام ١٩٨٩ م واحدًا من أهمّ جهود الدكتور الراجحيّ النظريّة في خدمة تعليم اللّغة العربيّة، هدفه تقديم تعليم اللّغة العربيّة وفق " علم " له أصوله وله مناهجه، يستثمر نتائج علوم أخرى كثيرة تصل باللّغة من جهة ما يُعنى به علم اللّغة التطبيقيّ الذي يدرك أنّ تعليم اللّغة يخضع لعوامل كثيرة لغويّة ونفسيّة واجتماعيّة، وتربويّة. (٢٧)

والكتاب في سبعة فصول، الفصلان الأوّل والثاني يوضّحان ويبيّنان مفهوم علم اللّغة التطبيقيّ ومصادره العلميّة، والفصول الثلاثة التالية تعرض أهمّ أساليب هذه العلم الفنيّة وهي: المقارنة الداخليّة، والتّحليل التقابلي، وتحليل الأخطاء، واختيار المحتوى، والفصلان الأخيران يقترح الدكتور فيهما منهجًا علميًّا لتعليم العربيّة لأبنائها ولغيرهم بعد أن بيّن واقع تعليم العربيّة، وجهود العلماء والمدرسين في ذلك.

وفي العام ٢٠٠٤ صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب القيّم، نبّه في مقدّمها المؤلّف إلى أهميّة علم اللّغة التطبيقيّ والحاجة إليه في تعليم اللّغة في عصر العلم؛ لأنّ نهضة المجتمعات العربيّة لن تتحقّق إلاّ بإقامة صرح التعليم على أسس المنهج العلميّ، وقد كان المؤلّف موضوعيًّا إذ أشار إلى أنّ بين طبعة الكتاب الأولى والثانية نحو خمسة عشر عامًا شهد فيها علم اللّغة التطبيقيّ إضافاتٍ علميّةً جوهريّة فتحت آفاقًا كثيرة في تعليم اللّغات كان من الواجب أن يُشير إلى بعضها في الطبعة الجديدة، ولكنّه آثر أن يظلّ الكتاب على الصورة التي صدر بها شاهدًا على التقاعس " الذي لا نزال ننعم فيه." (٢٨) وفي هذا دليل حيّ على موضوعيّة الدكتور الراجحيّ في تقييم واقع تعليم

اللّغة العربيّة.

وقد اقترح الدكتور الراجحيّ في هذا " الكتاب " معايير علميّة للنهوض بتعليم العربيّة لأبنائها ولغيرهم استنادًا إلى ركيزة أساسيّة تقوم على أن تكون أهداف تعليم اللّغة العربيّة وفق منهج علميّ بدءًا من التخطيط على مستوى القرارات العليا وصولاً إلى المستوى التنفيذيّ، هذا المنهج العلميّ يقتضي التكامل بين الأهداف والغايات واختيار المحتوى واختيار النمط اللّغويّ والموقف التعلميّ وكفاءة المعلّم. وسنورد مختصرًا عمّا دعا إليه الدكتور الراجحيّ في ما سمّاه

" المجالات الفنيّة " في تعليم العربيّة.

أ- اختيار المحتوى:

يمثّل المرحلة الجوهريّة في تعليم العربيّة، وهناك عوامل كثيرة تؤثّر في الاختيار، كالأهداف، ومستوى المقرّر، والوقت المحدّد له، وعمر المتعلّم، ودافعيّة التعلّم، ونوع المدرسة، وإنّ اختيار المحتوى يقتضي تكامل العمل المتخصّص من علم اللّغة، وعلم اللّغة النفسي، وعلم اللّغة الاجتماعيّ، والتربية. ويرى الدكتور الراجحيّ أنّ أساتذة الجامعات- من ذوي المستوى الأكاديميّ – لا يصلحون في الأغلب لتأليف كتب تعليميّة، فهم لا يُفيدون إلاّ في جانب واحد، وهو الجانب اللّغوي الوصفيّ، فضلاً عن أنّه لا يتوافر لهم الوقت ولا الأدوات الضروريّة، ومن جهة ثانية فإنّ أساتذة التربية لا يمكن أن يفيدوا إلاّ في الجانب التربويّ التعلميّ، من هنا وجب تضافر الجهود وفق أسس المنهج العلميّ الذي يقترحه علم اللّغة التطبيقيّ من أجل تأليف الموادّ التعليميّة التي من شأنها أن تُسهم في نهضة تعليم اللّغة العربيّة. (٢٩)

ب- اختيار النمط:

يرى الدكتور الراجحيّ أنّ النمط الذي يجب أن يكون مصدر اختيار المحتوى هو المزج بين العربيّة الفصيحة المعاصرة وفصيحة التراث. فأمّا الأولى فلغة الإعلام، والخطب العامّة، والمحاضرات، وأمّا الثانية فلغة النصّ القرآنيّ، والحديث الشريف، والتراث الأدبيّ النثريّ والشعريّ وهي التي تحمل ثقافة الأمّة الإسلاميّة، ويدعو الراجحيّ إلى أن يكون ثمّة نصوص من فصحى التراث في المراحل الدراسيّة كافّة، لا أن تكون محصورة في المرحلة الثانويّة أو الجامعيّة فحسب، بل لا بدُّ من أن يتعرض الطلاب في المراحل الدنيا إلى النماذج الأدبيّة الكبرى من التراث، بأسلوب مبسّط؛ لأنّها تُزوّدهم بالمعالم الكبرى في تاريخهم وثقافتهم، حتّى يُصبح هذا التاريخ وهذه الثقافة مكوّنًا أساسيًّا من المكونات النفسيّة للمجتمع. (٣٠)

ج- اختيار الكلمات

يرى الدكتور الراجحيّ أنّ اختيار الكلمات يجب ألاّ يكون عشوائيًّا قائمًا على الحدس والخبرة، ولكن ينبغي أن يكون قائمًا على معايير علميّة تُحصي الكلمات العربيّة الأكثر شيوعًا على مستوى العربيّة الفصيحة المعاصرة، وعلى مستوى عربيّة التراث، بحيث نعرف المائة كلمة الأكثر شيوعًا فنختارها للصف الأوّل الابتدائيّ ثمّ التي تليها، ثم التي تليها وهكذا. (٣١)

د- اختيار محتوى النحو:

يرى الدكتور الراجحيّ أنّ اختيار محتوى النحو يجب أن يكون وفق معايير موضوعيّة يحكمها درجة الشيوع للأساليب النحويّة التي لا يستغني عنها الاستعمال اللّغويّ، (٣٢) ويكون مطوّعًا لأغراض التّعليم وأهدافه في كلّ مرحلة من المراحل التّعليميّة، (٣٣) فيجب أن يكون النحو الذي يُقدّم للطلاب في التعليم غير النحو الذي في الكتب العلميّة، يجب أن يكون قائمًا على الانتقاء لما هو مستعمل وفق مبدأ الشيوع، أمّا الذي لا يستعمل فيكون للمتخصّصين جدًّا، وإلاّ ينقلب هذا إلى سخرية للّغة. (٣٤)

هـ - الإملاء:

يرى الدكتور " الراجحيّ " أنّ تعليم الإملاء أو التهجيّ لا مجال فيه للاختيار؛ لأنّ العناصر التي تكوّن النظام الكتابيّ في اللّغة محدودة جدًّا، ولكنّ تعليم الإملاء يحتاج إلى تنظيم، هذا التنظيم قوامه الربط الصحيح والدقيق بين النظام الكتابيّ والأنظمة الصرفيّة والنحويّة والدلاليّة، لذا يؤكّد الدكتور الراجحيّ أنّ تعليم النظام الإملائيّ العربيّ ليس مسألة آلية، وإنّما يرتبط بالنظام اللّغويّ الشامل للّغة.(٣٥)

هكذا يتّضح أن الدكتور الراجحيّ قد بنى نظريته في تعليم اللّغة العربيّة لأبنائها ولغيرهم على أساس الاختيار من اللّغة، هذا الأساس القائم على قواعد علميّة موضوعيّة تخدم عمليّةَ التعليم أهدافَها وغاياتها وهي الأكثر استعمالاً، الأوسع انتشاراً، والأقل تقيّدًا، والأوثق اتصالاً بالتراث الثقافيّ.

ب- الجهود التطبيقيّة

١- التطبيق النحويّ والتطبيق الصرفيّ

كتابان يُعدّان من أجود ثمار الدكتور الراجحيّ (رحمه الله) في خدمة تعليم اللّغة العربيّة، والعناية بها في هذا الجانب، صدرا في العام ١٩٧٢م، انطلاقًا من إيمان المصنِّف بضرورة تقديم اللّغة العربيّة نحوها وصرفها في صورة تيسّر الإفادة منهما تيسيرًا نابعًا من الأصل من دون " تقزيم" هذين العلمين، ومن جهة أخرى يجعل المتعلّم قادرًا على استعمال العربيّة استعمالاً صحيحًا، وعلى تحليل النّصوص العربيّة تحليلاً دقيقًا استنادًا إلى وعي جوهر هذين العلمين وأسسهما، وخريطة كلٍّ منهما التي تُعدُّ دليلاً في فهم الصرف والنحو فهمًا علميًّا حيًّا ينعكس في التطبيق والاستعمال.

لذا تميّز الكتابان بميزات علميّة وأسلوبيّة تجعل كلاًّ منهما مرجعًا أساسيًّا في مكتبات الباحثين والدارسين والطلاب والمعلّمين في العالم العربي (٣٦) ، وهذه السّمات هي:

- التركيز على تقديم أبواب الصرف والنحو وموضاعتهما تقديمًا يُعنى بالجانب التطبيقيّ الوظيفيّ من دون الخوض في شرح جوانب هذه الأبواب والموضوعات شرحًا تفصيليًّا كما هي الحال في الكتب القديمة، وفي الوقت نفسه من دون إغفال المعارف الأساسيّة والمهمة في كلّ باب أو موضوع، ولهذه الطريقة التطبيقيّة المزوجة بالمعلومات النظريّة أهميّة بارزة في الأخذ بيد الطالب إلى فهم المسائل الصرفيّة، وأصول الجملة العربيّة وإدراك نظامها، ومن ثمّ إلى إتقان النحو والصرف إتقانًا واضحًا.
- حسن تقسيم أبواب الكتابين تقسيمًا علميًّا يهدف إلى بناء خريطة واضحة في ذهن المتعلّم والطالب تُعينه على استيعاب هذين العلمين استيعابًا علميًّا منظّمًا وافيًا، فالمصنّف ينتقل بالطالب من باب إلى باب ومن موضوع إلى موضوع بطريقة مترابطة، متكاملة، متناسقة، يؤسّس ثمّ يبني على ما أسس، ثمّ يُحكم البناء إحكامًا يدلّ على وعي واف للعِلْمَيْن، وخبرة عريقة في تعليم العربيّة.
- كثرة الشواهد والأمثلة التطبيقيّة من تصريف واشتقاق، وإعراب وتحليل نحويّ، بحيث تستوفي هذه التطبيقات الباب كلّه، فلم يكتفِ الدكتور رحمه الله بإعراب جملة أو جملتين مثلاً في باب من أبواب النحو، ولكنّه استغرق قواعد الباب كلّه، وكذا في الصرف، وهو بذلك يسعى إلى التدريب الوافي، والتمكين الواقي من الخطأ أو التوهّم.
- تذييل كلّ باب أو قسم من الأبواب الصرفيّة والنحويّة وأقسامهما بتدريبات، كانت كلّها في كتاب "التطبيق النحويّ" من القرآن الكريم، وفي هذا فائدتان: الأولى معرفيّة "مرجعيّة" تتحقّق بإعانة الطالب على ربط بين الشواهد المقترحة للتدريب وموضوع الباب أو المبحث، والثاني "تمكينيّة" تتحقّق بالتدريب والتطبيق العمليّ في نهاية كلّ قسم.
- الأسلوب العلميّ الرصين الذي يجمع بين دقّة العبارة، ووضوحها من جهة وبراعة نظمها وسبكها في غيرها من جهة أخرى بحيث يشعر القارئ أنّه أمام أستاذ معلّم يشرح له المبحث والباب شرحًا دقيقًا خطوة خطوة، ويبني أمامه صرح النحو لَبِنَة لَبِنَة في أسلوب خطابيّ محبب؛ فيُكثر من قول: " أنت ترى" و " أنت تعلم" و "ينبغي أن تفرّق" و "لعلّك تعلم" ، وغيرها من العبارات التي تجعل أسلوب الكتابين حيًّا تفاعليًّا يُعبّر عن شخصيّة صاحبه التي جُبلت على التواضع والخلق وتغذّت من حب العربيّة وخدمة تعليمهت ونشرها.

٢- المجالس النحويّة والصرفيّة والإعرابيّة

هي مجالس علميّة قيّمة صدرت في تسجيلات صوتيّة عن مؤسسة دار الرشاد في بيروت عشرة أشرطة في المجالس النحويّة، وأربعة أشرطة في المجالس الصرفيّة والإعرابيّة، قدّم فيها الدكتور الراجحيّ موضوعات عِلْمي الصرف والنحو تقديمًا علميًّا منهجيًّا بأسلوب مُبَسّط يفهمه المتخصّص وغير المتخصص يمزج فيه اللّغة العربيّة الفصيحة باللهجة المصريّة الجميلة ؛ ليقدّم صورةً ناصعة عن اللّغة العربيّة صرفها ونحوها، وقدرتها المرنة على التعبير عن الأغراض الفكريّة والنفسيّة والعلميّة والخياليّة بأسلوب جميل، وعلميّ أو إبداعيّ. وقد ركّز الدكتور في مجالسه على الجانب الوظيفيّ التطبيقيّ للغة مبيّنًا قيمتها في حفظ الثقافة. ودعا في غير موضع في هذه المجالس، وفي غيرها، إلى ضرورة التمييز بين النحو وتعليم النحو، فالثاني يقتضي التركيز على المهم في الاستعمالات، والشائع، والذي يخدم التطبيق.

وتُعدُّ هذه المجالس إرثًا علميًّا مُهمًّا يتعرّف من خلالها كلّ من أراد أن يتعلّم العربيّة إلى شخصيّة أستاذها الراجحيّ صوتًا مؤثّرًا في نفس الطالب، وحضورًا مؤثّرًا في فكرة اللّغويّ وثقافته الإسلاميّة والعربيّة.

٣- خلاصة البحث

يخلص هذا البحث إلى ما يلي:

١- إنّ آراء العلاّمة الراجحيّ في مجال تعليم اللّغة العربيّة آراء علميّة ترتكز على الوصف الموضوعيّ لواقع تعليم اللّغة العربيّة والتقييم العلميّ له بناء على الحقائق، والمعايير العلميّة وليست آراء انفعاليّة اعتباطيّة.

٢- إنّ جهود الراجحيّ في مجال تعليم العربيّة النظريّة والتطبيقيّة جهود علميّة قيّمة؛ لأنّها تستند إلى الأصول العلميّة في إطارها النظريّ، وإلى الأهداف الأساسيّة لتعليم اللّغة العربيّة في إطارها التطبيقيّ، الأمر الذي يجعل هذه الجهود جديرة بالدراسة والتّحليل والتطوير لما فيها من فوائد من شأنها أن تُسهم في خدمة تعليم اللّغة والارتقاء به على مختلف الأصعدة والمستويات.

٣- إنّ الراجحيّ صاحب مذهب علميّ فريد في تعليم الغة العربيّة، جدير أن يُدرس ويُقيّم وفق الأصول العلميّة، ومذهبه هذا يقوم على أسس علميّة لا على التجارب الاعتباطيّة، ويقوم على مبدأ التقعيد لا التعقيد، وعلى التبسيط لا التهميش، وعلى التطبيق لا التنظير، وعلى ربط اللّغة بالواقع والاستعمال بما يضمن لها حيويّتها مع ضرورة اتصالها بالتراث الثقافي المميّز.

٤- إنّ الاقتراح الذي دعا إليه الراجحيّ، وهو إنشاء مجلس مركزيّ للعربيّة، يُعدُّ اقتراحًا عمليًّا، حري أن يُعاد النظر في دعوة إنشائه، والإفادة ممّا قدّمه الراجحيّ في شروط هذه المشروع، وأهدافه، وأعماله، ولا سيّما أنّه اقتراحٌ له مثيلٌ ناجح في الدول الغربيّة في تعليم اللّغات الأجنبيّة.

٥- إنّ دعوة الراجحيّ إلى أهميّة تطوير الدرس اللّغوي في مجاله التطبيقيّ، بما يخدم الارتقاء بمستوى تعليم العربيّة في بلادنا تعدُّ دعوة ينبغي أن تُعقد لها المؤتمرات الخاصّة، والندوات المتخصّصة، للسّعي إلى تطوير مجالات البحث والدراسة في علم اللّغة التطبيقيّ في عالمنا العربي وفق ما يواكب ما وصل إليه هذا العلم في الدول الأجنبيّة.

٦- إنّ دراسة جهود علماء اللّغة العربيّة المعاصرين مثل الراجحيّ وغيره لا تقلّ أهميّة عن دراسة جهود علمائها القُدامى، بل من شان هذه الدراسات أن تؤصّل مذاهبهم، وتنشر اجتهاداتهم، وتُطوّر مجال الدرس اللّغويّ وتُغنيه، وتدعم البحث اللّغويّ العربيّ الحديث، وتُعيد له كيانه عالميًّا.

الهوامش

(١) النادري، أسعد، فقه اللّغة، مناهله ومسائله، دار المكتبة العصريّة، بيروت ٢٠٠٥، ص ٩٠ و ٩١.

(٢) من هذه الكتب " التطبيقي النّحوي" و "التطبيق الصرفي" ، و"فقه اللّغة في الكتب العربيّة"، و"النحو العربي والدرس الحديث"، و"علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة" وغيرها.

(٣) الشيخ محمود عبد الصمد الجيار، أحد تلامذة الدكتور الراجحيّ في مصر، جمع مقالات الدكتور عبده الراجحيّ وبحوثه المنشورة وغير المنشورة في كتاب " مقالات عبد الراجحيّ وبحوثه" وليس في الكتاب تعليقات أو شروحات أو تحليلات للنصوص الواردة فيه. نشرته دار الصحابة للتراث بطنطا، العام ٢٠١٧.

(٤) الجيار، محمود عبد الصمد، مقالات عبده الراجحيّ وبحوثه، دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠١٧ ص٢٣.

(٥) بناءً على ما حصلت عليه من مصادر هذا البحث، ولا شكّ أنّه قد تكلّم في هذا الموضوع قبل هذا التاريخ.

(٦) الجيار، محمود عبد الصمد، مقالات عبده الراجحيّ وبحوثه، ص ٨٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٩) الراجحيّ، عبده، علم اللّغة التطبيقي وتعليم العربيّة، دار النهضة العربيّة، بيروت، ٢٠٠٤ ،ص ٨٩.

(١٠) الجيار، محمود عبد الصمد، مقالات عبد الراجحيّ وبحوثه، ص ٢٨.

(١١) من محاضرة بعنوان " المجامع اللّغويّة من كتاب مقالات عبد الراجحيّ وبحوثه٩، ص ١٤٨.

(١٢) الجيار، محمود عبد الصمد، ص٦١، ٦٢.

(١٣) علم اللّغة التطبيقي، ص ٩٢.

(١٤) ورد ذلك في غير بحث ومحاضرة يمكن مراجعة نصوصها كاملة في كتاب مقالات عبده الراجحيّ وبحوثه مثل: " تعليم العربيّة... إلى أين؟" و " تخطيط لمستقبل تعليم العربيّة" و " تعليم العربيّة من أين نبدأ" و " العرب لم يدخلوا عصر العلم" و " غياب التكامل العلميّ في تعليم اللّغة" ، فضلاً عمّا ورد في كتاب " علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة".

(١٥) علم اللّغة التطبيقيّ، ص ٩٢.

(١٦) الجيار، محمود عبد الصمد، من مبحث عنوانه " تخطيط لمستقبل تعليم العربيّة" ص ٣٤.

(١٧) المصدر نفسه، من محاضرة عنوانها " تعليم العربيّة من أين نبدأ" ص ٦٥.

(١٨) علم اللّغة التطبيقيّ، ص ١١٢.

(١٩) الجيار، محمود عبد الصمد، من مبحث عنوانه " تخطيط لمستقبل تعليم العربيّة " ص ٣٤.

(٢٠) المصدر نفسه، من محاضرة عنوانها " تعليم العربيّة من أين نبدأ" ص ٦٥.

(٢١) راجع علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة ص ١١٢، ومقالات عبده الراجحيّ وبحوثه ص ٣٤ ، ٣٥.

(٢٢) المصدران السابقان ص ١١٢، ١٢٤ ، و ٣٥.

(٢٣) مقالات الدكتور عبد الراجحيّ وبحوثه ص.٦٢

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٢٦) الراجحيّ، عبده، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٦٠.

(٢٧) علم اللّغة التطبيقيّ وتعليم العربيّة ص ٨

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، ٩٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٩٦ ، ٩٧

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٠١ ، ١٠٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٣٤) المجالس النحويّة،تسجيلات صوتيّة، دار الرشاد بيروت، الشريط السادس.

(٣٥) علم اللّغة التطبيقيّ ص ٩٧ ، ١٠١.

(٣٦) يشهد لذلك التعليقات الكثيرة التي يقرأها الباحث في " الانترنت"، ومواقع التواصل الاجتماعيّ، فضلاً عن إفادات الأساتذة الجامعين والأكاديميين.